العطاء الجغرافي في مقدمة ابن خلدون

أ.د. حسن الخياط
أستاذ الجغرافيا بجامعة قطر

مقدمة :

لم يكن العرب والمسلمون قادة سياسة وحرب ، أو أصحاب عقيدة وإيمان وحسب ، بل كانوا كذلك رجال علم ومعرفة . فقد تخطت جهودهم العلمية وطاقاتهم المعرفية في أهميتها ما سبقهم من الشعوب وعاصرهم من الأقوام . وكانت حصيلتهم العلمية والمعرفية قد تولدت عن إنتاجاتهم الإبداعية وأعمالهم الخلاقة ودراساتهم الأصيلة ، فضلاً عما ورثوه من معارف وعلوم الحضارات التي سبقتهم كالإغريقية والرومانية والفارسية والهندية والصينية وغيرها . وكان من نتائج هذا التزاوج بين الإبداع والأصالة العربية الإسلامية من جهة وتراث الحضارات السالفة والمعاصرة من جهة أخرى أن أضيفت نتاجات علمية وفكرية جديدة إلى عالم المعرفة البشرية . وإن من بين هذه النتاجات تلك الإضافات الجغرافية الأصيلة التي اعتبرت في حينها ، وفيما بعد أيضاً ، ركيزة من ركائز عصر النهضة وإنتفاضة العلوم والمعارف التي بدأت إرهاصاتها مع أحداث التاريخ العالمي الحديث .

وكان آخر الكوكبة الشهيرة من علماء العرب والمسلمين الذين يشار إليهم بالبنان والأصالة في التطور العلمي خلال القرون الوسطى هو «أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن المعروف بابن خلدون الاشبيلي الحضرمي» . إنه ولد في تونس عام ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) ودرس على أيدي علمائها ، ثم بدأ حياته العملية في سن مبكرة حيث عمل كاتباً ووزيراً وأميناً وقاضياً لعدد من الأمراء في الأندلس والمغرب . كما عمل قاضياً في مصر والشام ، وتوفي في القاهرة عام ٨٠٨هـ (١٤٠٦م) .

لقد اشتهر ابن خلدون بكتابه المعروف بـ (مقدمة ابن خلدون) ، وهي مقدمة كتبها لمؤلفه المعروف باسم « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر » . وقد نالت هذه المقدمة من الشهرة في الفكر الأوروبي ما لم ينله أي كتاب عربي آخر ، وترجمت إلى معظم اللغات الأوربية ، وكتبت عنها وعن مؤلفها الدراسات المستفيضة . ولقد بوأته تلك المقدمة مركزاً سامياً في الدراسات الاجتماعية والتاريخية والسياسية والجغرافية[١] .

وبقدر مايتعلق الأمر بالعطاء الجغرافي فقد جاءت مقدمة هذا العالم الجليل مليئة بكل جديد من الآراء والأفكار التي أصبحت فيما بعد ، وخلال التاريخ الحديث والمعاصر ، من المنطلقات الأساسية لكثير من القوانين والقواعد والنظريات الجغرافية المتطورة . ويمكن تبين المحاور الجغرافية التي غطاها في مقدمته من خلال الفصول التي أشار إليها حيث قال:

« انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول. **الأول** في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض. **والثاني** في العمران البدوي... **والثالث** في الدول والخلافة والملك... **والرابع** في العمران الحضري والبلدان والأمصار... **والخامس** في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه... **والسادس** في العلوم واكتسابها وتعلمها... »[٢] .

ومن مراجعة هذه المحتويات يبدو واضحاً أنها تطرقت صراحة أو ضمناً إلى عدد من مجالات المعرفة الجغرافية . وهذه المعرفة إما أنها قد اقتسبت من كتب السابقين ولاسيما الإدريسي (١١٠٠ - ١١٦٦م) وابن سعيد (١٢١٤ - ١٢٧٤م) وياقوت الحموي (١١٧٩ - ١٢٢٩م) ، أو أنها استندت على المؤلفات اليونانية والرومانية ، وبخاصة مؤلفات بطليموس في القرن الثاني الميلادي . ولا يعيب ذلك معلومات وأفكار ابن خلدون الجغرافية لأنه لم يكن مجرد ناقل ، بل كان متفهماً ومدركاً وواعياً للمفاهيم الجغرافية على اختلاف أشكالها . ولقد تضمنت معلوماته الكثير من الآراء التي باتت تعتبر اليوم من أساسيات الجغرافية البشرية عموماً ، وجغرافية العمران والجغرافية السياسية على نحو الخصوص .

وهنا في هذا البحث نحاول أن نستعرض ماورد في مقدمة العلامة ابن خلدون من آراء وأفكار ومعلومات جغرافية كان لها الفضل في إثراء وتطوير مفاهيم علم الجغرافية الحديث والمعاصر . فقد أصبح الكثير من هذه الأفكار والآراء أساساً وركيزة لمجموعة من القوانين والقواعد والنظريات الجغرافية التي يدعي بعض الجغرافيين المحدثين والمعاصرين من العالم المتقدم بأنهم أصحابها ، وإنها من نتاج أفكارهم وأعمالهم الأصيلة ، مع أنها قد وردت صراحة أو ضمناً ، مباشرة أو بصورة غير مباشرة ، في كتابات علماء ومفكري العرب والمسلمين وفي مقدمتهم العالم الجليل ابن خلدون . ولسعة الموضوع وكثرة الشواهد على

أهمية دراسات هذا العلامة وتشعبها وشمولها لتخصصات في التاريخ وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والجغرافيا رأينا أن نخصص هذا البحث لمناقشة ثلاثة محاور فقط في العطاء الجغرافي لمقدمة ابن خلدون ، وهي في الآتي :

أولاً : محور الجغرافيا البشرية ، وبخاصة في موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة وفلسفة الحتم الجغرافي .

ثانياً : محور جغرافية العمران .

ثالثاً : محور السياسة والجغرافية السياسية .

وسنحاول في دراسة هذه المحاور أن نستعرض ونتقصي ونحلل ماكتبه ابن خلدون من أفكار وآراء جغرافية ومايقابلها من نظريات وقوانين وقواعد وأفكار لجغرافيين محدثين ومعاصرين ، وبذلك نكون قد ساهمنا في إبراز مكانة هذا العلامة الجليل وتأثيره في مسيرة الفكر الجغرافي الحديث والمعاصر .

أولاً : محور الجغرافيا البشرية ، وبخاصة في موضوع العلاقة بين الإنسان والبيئة وفلسفة الحتم الجغرافي .

الإنسان والبيئة وتفاعلهما وتبادل التأثير بينهما هو أحد محاور دراسات الجغرافيا البشرية . فقد تشعبت هذه الدراسات وتعددت الفلسفات حول أيهما : الإنسان أو البيئة الطبيعية ، أكثر تأثيراً وفعالية في تغيير الملامح الجغرافية والحضارية لسطح الأرض . ومن بين الفلسفات التي استقطبت اهتمام الجغرافيين وغيرهم فلسفة الحتم الجغرافي determinism والفلسفة الإمكانية possibilism وفلسفات معتدلة أخرى . وكان ابن خلدون من أكبر دعاة الحتمية وفلاسفتها والعاملين على نشرها . وقد استفاد كثيراً من اطلاعاته الواسعة لمؤلفات من سبقه ، سواء كانوا عرباً ومسلمين أو إغريقاً ورومان ، وتأثر بنظرياتهم وأفكارهم . ولعل فلسفته الحتمية كانت حصيلة هذا الإطلاع الواسع والقراءات المكثفة ، فضلاً عن أصالته الفكرية ورحلاته الميدانية في آسيا وأفريقيا . فقد ساعدته هذه الخلفيات في شرح العلاقة بين الإنسان من جهة والبيئة الطبيعية من جهة أخرى ، ومدى الإرتباط والتفاعل بينهما . وكانت حصيلة ذلك إيمانه بأن البيئة بمختلف عناصرها تؤثر في الإنسان وتحتم نمط سلوكه وحياته .

وقبل الخوض في النصوص الواردة في مقدمة ابن خلدون عن فلسفة الحتم الجغرافي ينبغي أن نستعرض وبإيجاز فحوى هذه الفلسفة ومنطوقها ، خاصة وأنها شغلت أذهان المفكرين منذ قرون وحتى وقتنا الحاضر ، وشارك في طرحها ومناقشتها علماء من مختلف الأجناس والبلدان .

فالحتمية بمفهومها الفلسفي أو الحتم البيئي environmental determinism أو الحتم الجغرافي تعني تحكم البيئة الطبيعية في الإنسان وسيطرتها عليه . فهي تؤثر في خلقته وشكله ونمط حياته وسلوكه وأفعاله وكافة الأنشطة والفعاليات التي يمارسها أو يمتهنها على سطح الأرض . والبيئة هذه هي كل مايكتنف الإنسان ويحيط به من ظاهرات طبيعية كالموقع والمناخ والتربة ومظاهر السطح والغطاء النباتي والثروة الحيوانية الطبيعية وغيرها . وليس هناك من ينكر دور هذه الظاهرات كعامل بيئي في نشاط الإنسان وسلوكه وطباعه وتوجهاته الاقتصادية وأنماطه الاجتماعية ، ولكن إلى أي مدى يصل هذا التأثير ؟

ولعل الإغريق هم أول من أرسى دعائم الحتمية وأشاروا إلى تأثير عوامل البيئة في الإنسان وأرجعوا التباين في البشر وسلوكهم وطباعهم إلى المؤثرات البيئية . ومن الفلاسفة الذين كتبوا في ذلك هيبوقراط أو أبو قراط (٤٢٠ ق.م) الذي ناقش تأثير الهواء والماء والمكان على الإنسان . كما ردد أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) آراء الحتمية في كتابه «السياسة» حيث فسر قيام مدينة روما وتطورها وقوتها بعوامل طبيعية . وتوجد مثل هذه الأفكار عند كثير من المفكرين البارزين المحدثين من أمثال مونتسكيو في النصف الثاني من القرن السابع عشر في مؤلفه « روح القوانين » حيث رأى أن المناخ الحار هو سبب الجمود في الدين والعادات والتقاليد والقوانين في الأقطار الشرقية[٣] . كما حمل الأفكار الحتمية مفكرون من كافة التخصصات كعالم الأحياء السويسري ارنست هيكل E.Haeckel الذي أرسى قواعد علم جديد باسم « الايكولوجيا Ecology » أو «علم التبيؤ» ، أي التكيف مع البيئة . وفي علم التاريخ أعتقد بكل Buckle بالحتمية اعتقاداً منه بأن ذلك خير من يرفع التاريخ إلى مستوى العلوم الطبيعية القائمة على السببية ، وسعى في ذلك للتوصل إلى قوانين وأنظمة تتحكم بالأحداث التاريخية ليجعل من التاريخ علماً . فقد رأى أن الطبيعة هي التي تحدد بنفسها الزمان والمكان والكيفية لنشاط الإنسان . وبعبارة أخرى أن القوى الطبيعية هي صاحبة السيادة .

وهناك من الحتميين الجغرافيين من أمثال ريتر Ritter وراتزل Ratzel الألمانيين وديمولان Demolins الفرنسي والين سمبل Ellen Semple وهنتنجتون E. Huntington الأمريكيين وغيرهم . فقد تمثلت آراء ديمولان مثلاً في كتابه المشهور « كيف يخلق الطريق الطراز الاجتماعي » حاول فيه إثبات أن المكان يصوغ شخصية الجماعة ونظمها الاجتماعية، أو أن البيئة تشكل المجتمع . أما هنتنجتون فهو صاحب الحتمية المناخية حيث يقول[٤] : «لقد حدثت تغيرات كبيرة في المناخ في الأزمان التاريخية وقبل التاريخية ، وأن تلك التغيرات قد أثرت بصورة عميقة على تاريخ وطبيعة الحضارات » . وتأتي الن سمبل على رأس غلاة المتطرفين للحتمية والمنادين بسيطرة البيئة وبسلبية الإنسان . وقد أخذت أفكارها الحتمية عن أستاذها راتزل . فقد قالت عن البيئة وأثرها في الإنسان في كتابها « تأثيرات البيئة الجغرافية » عام ١٩١١م مايأتي : « الإنسان نتاج سطح الأرض ، وليس معنى هذا أنه مجرد ابن الأرض وجزء من ترابها ، ولكن معناه أن الأرض أرضعته ، وغذته ، وحددت واجباته ، ووجهت أفكاره ... لقد تغلغلت في عظامه ولحمه وروحه وعقله »[٥] .

هذه مقتطفات من آراء وأفكار وكتابات بعض قادة الحتمية قديماً وحديثاً . أما ابن خلدون فقد كتب الكثير عن الأفكار الحتمية وتأثير البيئة وسيطرتها على الإنسان وتشكيل خصائصه الجسمية وتوجيه نشاطاته وتحديد ملامحه . فقد أوضح في مقدمته أثر درجات الحرارة العالية والمنخفضة على أخلاق البشر ، وأشار كذلك إلى العلاقة بين بنائهم الفسلجي وطبيعة الأقاليم التي يعيشون فيها . فعزا سواد بشرة سكان الأقاليم المدارية إلى إفراط الحر فيها ، كما عزا بياض بشرة سكان العروض العليا إلى إفراط البرد فيها ومايتبع ذلك من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر . وكتب كذلك أن أخلاق سكان الأقاليم المدارية في أفريقيا تتميز بالخفة والطيش وكثرة الطرب ويعود ذلك إلى إستيلاء الحر على أمزجتهم ، في حين أن سكان البلاد الباردة يتصفون بالجدية والكآبة . وهناك عرض في مقدمته الثالثة عن «المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم» . وفي مقدمته الرابعة ناقش «أثر الهواء في أخلاق البشر» وفي مقدمته الخامسة درس «اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وماينشأ عن ذلك

من الآثار في أبدان البشر وفي أخلاقهم» . ويمكن اقتطاف بعض ماكتبه ابن خلدون عن هذه الظواهر والعلاقات الجغرافية وهي كالآتي :

فعن العلاقة بين المناخ والإنسان يقول ابن خلدون :

« إن المعمور من هذا المنكشف من الأرض إنما هو وسطه لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال . ولما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط ، فيكون معتدلاً . فالإقليم الرابع أعدل العمران .. فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه ، بل والحيوانات وجميع مايتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالإعتدال ، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً ، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها ... وأما الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأقاليم الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الإعتدال في جميع أحوالهم . فبناؤهم بالطين والقصب ، وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود ، وأكثرهم عرايا من اللباس ... وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خَلْق الحيوانات العُجْم حتى لِيُنْقَلُ عن الكثير من السودان أهل الأقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً ... والسبب في ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يَقْرُب عَرَضُ أمزجتهم وأخلاقهم من عَرَض الحيوانات العُجْم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك ، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضاً فلا يعرفون نبوءة ولا يدينون بشريعة إلا من قَرُب منهم من جوانب الإعتدال ... »[٦] .

وعن تأثير الحر وهواء الأقاليم الحارة في لون بشرة الإنسان يقول ابن خلدون في مقدمته مايأتي :

«وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات وذلك أن هذا اللون شمل أهل الأقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تُسامتُ رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لأجلها ويُلحُ القيظ

الشديد عليهم وتَسْوَدُ جلودهم لإفراط الحر ، ونظير هذين الاقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضاً البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال عامة الفصول فتَبْيَضُ ألوان أهلها وتنتهى إلى الزُعورة ، ويتبع ذلك مايقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور ... وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في خُلقهم وخَلقِهم . فالأول والثاني للحر والسواد والسابع للبرد والبياض . ويسمى سكان الجنوب من الإقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد ... وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء . . »[٧] .

ويواصل ابن خلدون كتابته عن تأثير البيئة الطبيعية فيقول :

« وأما أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خُلقهم وخَلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للإعتمار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرئاسات والملك فكانت فيهم النبوات والمُلك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والأمصار والمباني والفراسة والصنائع الفائقة وسائر الأحوال المعتدلة ... »[٨] .

ولايقتصر تأثير البيئة عند ابن خلدون في الإنسان من حيث أجناسه وسلالاته ، وسلوكه وطباعه ، ونشاطه وأفعاله ، وإنما يتعدى ذلك إلى أثر الموارد البيئية على نمط الحياة وشكل العمران . فيقول ابن خلدون في « المقدمة الخامسة في اختلاف العمران في الخصب والجوع ، وماينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم » مايلي :

« إن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ، ولا كل سكانها في رغد من العيش ، بل فيها مايوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدَم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران ، وفيها الأرض الحرة التي لا تُنْبِت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شظف من العيش مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن والساكنين بصحراء المغرب ... ومثل العرب الجائلين في القفار ... »[٩] .

ويبالغ ابن خلدون في تأثير البيئة على الإنسان مبالغة شديدة حتى فاق من سبقه من فلاسفة الحتمية ، فهو يربط بين الطعام والذكاء ، ويفسر ذكاء بعض الشعوب إلى نوع من الأطعمة التي تتناولها ، وفي ذلك يقول :

« فإنا نجد أهل الأقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والأدَم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم ، وهذا شأن البربر المنغمسين في الأدم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة مثل المصامَدَة منهم وأهل غمارة والسوس والعرب من أهل القفار الفاقدين للحبوب والأدَم ويقتصرون على الألبان هم أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش ، فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتمُّ وأحسن وأخلاقهم أبعد من الإنحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات ... وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الأدم والبُرّ مع أهل الأندلس المفقود بأرضهم السَّمْنُ جملة وغالب عيشهم الذرة فنجد لأهل الأندلس من ذكاء العقول ، وخفة الأجسام وقبول التعليم ما لايوجد لغيرهم ... »[١٠] .

وفي المقدمة الرابعة في «أثر الهواء في أخلاق البشر» يقول ابن خلدون :

« قد رأينا من خُلُق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحُمق في كل قطر ، والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضُه وتكاثُفه . وتقرر أن الحرارة مُفْشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يُعَبِّرُ عنه وذلك بما يُداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سَوْرَةُ الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح . وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور . ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشدُ حراً فتكون أكثر تفشياً وتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطاً ويجيء الطيش على أثر هذه . وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة

موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة . وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الإقليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلول ، واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فإنها مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لايدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من أسواقهم . ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يُرْزَأ شيئاً من مدَّخره . ونتبع ذلك في الأقليم والبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء ، والله الخلاق العليم ... »[١١١] .

ثانيا : أفكاره في محور جغرافية العمران :

تحتوي مقدمة ابن خلدون على أفكار ودراسات أصيلة تعتبر الكتابة عنها حالياً من القضايا والركائز الأساسية في تشكيل هيكل أدبيات جغرافية العمران . فنشأة المدينة ودراسة موضعها وموقعها ومراحل نموها وعلاقاتها الإقليمية وأساسها الاقتصادي وتصنيفها الوظيفي هي ظاهرات عالجها ابن خلدون في مقدمته ، وإنها في ذات الوقت تشكل المحاور الأساسية لجغرافية العمران التي كثيراً مايشار إليها في الكتابات الجغرافية المعاصرة على أنها وليدة هذا القرن . ولغرض إثبات أصالة العلامة ابن خلدون نورد فيما يلي نماذج من أفكاره وآرائه التي أصبحت فيما بعد منطلقات لنظريات وقوانين وقواعد تشكل الخلفية لأساسيات جغرافية العمران . وسيكون التأكيد على الموضوعات الآتية :

١ - نشوء المدينة ومراحل تطورها .
٢ - موضع المدينة وموقعها .
٣ - العلاقة بين المدينة وإقليمها .
٤ - التصنيف الوظيفي للمدن وأساسها الاقتصادي .

١ - نشوء المدينة ومراحل تطورها :

يرى ابن خلدون أن :

« المدينة تمثل مرحلة من مراحل التطور الحضاري التي تأتي بعد حالة البداوة . فعندما تتطور المجتمعات البدوية وترقى بمستوياتها المعاشية والحضارية يأخذ أبناؤها بالإستقرار وبناء المساكن وتأسيس المرافق والخدمات التي بدورها تكون نواة لتأسيس المدينة، فالبناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها »[١٢] .

ويواصل ابن خلدون رأيه في نشأة المدينة حيث يقول :

« إن المدن هي من عمل المُلك والدولة وإن إعمارها وتطورها ملازم لحياة الدولة فتزول أو تتقلص بذهابها وتنمو وتتطور بوجود الدولة وتطورها كما في بغداد والقيروان وقرطبة. ولكن قد يستمر نمو المدينة بعد انقراض الدولة إذا كان لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبسائط بادية يمدها العمران دائماً فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما هي الحال في فاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لأن أهل البادية إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون ، وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياجها فيزول حفظها ويتناقص عمرانها شيئاً فشيئاً إلى أن تخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد بالمغرب وأمثالها ... وقد يتخذ المدينة ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قراراً وكرسياً يستغني بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتتزايد مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمراً آخر كما وقع بفاس والقاهرة »[١٣].

ورغم هذه الإشارات الواضحة التي وردت في المقدمة عن المدينة ونشأتها ، إلا أن الدراسات الحديثة قد غفلتها وأكدت على ماأشار إليه المحدثون من الجغرافيين فقط . فكثيراً مايشار إلى ماقاله فيدال دي لابلاش Vidal de la Blache الجغرافي الفرنسي الشهير وزعيم المدرسة الإمكانية Possiblilism عن علاقة الإنسان بالبيئة حيث قال : «إن المدينة عبارة عن تنظيم اجتماعي على مستوى عال من الأهمية وتعبر عن مرحلة من مراحل تطور الحضارة البشرية ... »[١٤] . كما أن أقوال ابن خلدون تذكرنا كذلك بدراسات قام بها علماء الاجتماع وتوصلوا فيها إلى أن «من دوافع استقرار البدو حالياً هو تأثرهم

بمظاهر المدنية الحاضرة التي يتمتع بها سكان المدن كتوفر وسائل الراحة وارتفاع مستوى المعيشة بالمقارنة مع حياة البدو البسيطة»[١٥] .

أما عن مراحل نمو المدن فيعتقد ابن خلدون أن المدن لاتظهر بصورة مفاجئة وسريعة ، وإنما تمر بمراحل كالتي تمر بها دورة الحياة في الكائنات الحية . فقد وصف هذه المراحل على الوجه الآتي :

«إعلم أن الأمصار إذا اختُطت أولاً تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر والجير وغيرهما ... فيكون بناؤها يومئذ يدوياً وآلاتها فاسدة . فإذا عظم عمران المدينة وكثر ساكنها كثرت الآلات وكثرت الصناع إلى أن تبلغ غايتها من ذلك ... فإذا تراجع عمرانها وخف ساكنها قلت الصنائع لأجل ذلك وفقدت الإجادة في البناء والأحكام والمعالاة عليه بالتنميق ثم تقل الأعمال لعدم الساكن فيقل جلب الآلات من الحجر والرخام وغيرهما فتُفقد ويصير بناؤهم وتشييدهم من الآلات التي في مبانيهم فينقلونها من مصنع إلى مصنع لأجل إخلاء أكثر المصانع والقصور والمنازل بقلة العمران وقصوره ... فيعودون إلى البداوة وإتخاذ الطوب عوضاً عن الحجارة والقصور عن التنميق بالكلية فيعود بناء المدينة مثل بناء القرى والمدَر وتظهر عليها سيماء البداوة ثم تمر في التناقص إلى غايتها من الخراب...»[١٦] .

يبدو مما تقدم بأن ابن خلدون قد شخّص وبوضوح أربع مراحل تمر بها المدينة خلال نشأتها وتطورها وهي الصبا والنضج والشيخوخة والتدهور والانهيار . ويظهر أن هذه المراحل هي ذاتها التي توصل إليها الجغرافي المعروف جريفث تيلور Griffith Taylor الذي آمن بـ «دورة تطور المدن» حيث رأى أن المدينة الكبيرة تمر بمراحل معينة أثناء نموها إستناداً إلى مادة البناء ونوعيته وظهور النطاقات الوظيفية للمدينة . وعلى أساس هذين المعيارين توصل إلى مراحل دورة حياة المدن التي أشار إليها بمراحل الطفولة والصبا والنضج والشيخوخة والإنقراض[١٧] . وقد تعرضت آراء ابن خلدون وجريفت تيلور إلى إنتقادات كثيرة ، وبخاصة فيما يتعلق بتشبيه حياة المدينة بحياة الأحياء العضوية[١٨] .

٢ - موضع المدينة وموقعها :

لجغرافيي المدن المعاصرين تعاريفهم الخاصة بالموضع site والموقع situation .

فالموضع في نظرهم هو دراسة الخصائص الطبيعية للأرض التي تقع عليها المدينة ، كجيولوجيتها وأشكال سطحها ومناخها ومواردها المائية وبنية تربتها وغير ذلك ، بينما يعرفون الموقع على أنه دراسة العلاقات المتبادلة بين المدينة وإقليمها من الناحية الاقتصادية والإدارية والإجتماعية والسكانية [١٩] . وعلى الرغم من أنه من الشائع بين الجغرافيين أن الجغرافي الألماني راتزل Ratzel هو الذي فرق بين الموضع والموقع في نهاية القرن التاسع عشر ، إلا أن جمال حمدان يرى أن ابن خلدون ، وليس راتزل ، هو أول من حاول التفريق بين فكرة الموضع وفكرة الموقع للمناطق الحضرية [٢٠] .

فقد أدرك ابن خلدون أهمية موضع المدينة وخصائصه الطبيعية وتأثيره على نشأتها وحمايتها ونموها وأداء وظائفها . ففي ذلك قال :

« أنه لغرض حماية المدن ودفع المضار بالحماية من طوارقها فيراعى لها أن تكون في متمنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لايوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ... ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض ، فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مُشاهدٌ ، والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب ، وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس ... » [٢١] .

كما أشار ابن خلدون إلى صفات الموقع حيث وصفه بالمنافع والمرافق . وفي ذلك قال :

« وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعي فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بآزائها عيون عذبة ثرةٌ ، فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مَرفقةٌ عظيمة عامة ... ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم ... فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة من بعده . ومما يراعى أيضاً المزارع فإن الزروع هي الأقوات ... ومن ذلك الشجر للحطب والبناء ... وقد يراعى أيضاً قربها من اليم لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية ... » [٢٢] .

ويواصل ابن خلدون إشاراته إلى المواضع والمواقع الملائمة لإنشاء المدن فيقول :

«ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخاً للمدينة متى طرقها طارق من العدو ، والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غَرةٍ للبيات وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها ...»[٢٣] .

٣ - العلاقة بين المدينة وإقليمها :

لم ينظر ابن خلدون إلى المدينة كوحدة منعزلة عن المناطق المحيطة بها ، بل رأى أن المدينة من أجل بقائها ونموها لابد لها أن ترتبط بعلاقات اجتماعية واقتصادية مع إقليمها ، وفي ضوء ذلك ميّز ابن خلدون ثلاثة نطاقات دائرية متحدة المركز تحيط بالمدينة وهي : -

١ - النطاق الزراعي .

٢ - النطاق الرعوي .

٣ - نطاق الأشجار والغابات (نطاق التحطيب) ، وهو نطاق تزويد المدينة بمادة البناء والوقود .

ومن الملفت أن ابن خلدون قد جعل ترتيب هذه النطاقات الثلاثة حول المدينة تتصف بالمرونة لتتناسب مع الحياة الاقتصادية للقبائل العربية . فقد رأى مثلاً أنه إذا ما استوطنت المدينة عشائر رعوية فإن النطاق الأول حول المدينة سيستثمر في الرعي ، وإذا كانت القبائل تمتهن الزراعة فإن النطاق الأول يستثمر في الزراعة ، أما نطاق الأشجار والغابات فإنه في رأى ابن خلدون يحتل وبصورة مستمرة موقعاً متطرفاً . وعلى هذا يكون ترتيب النطاقات في المجتمع الرعوي كالآتي : (المدينة . نطاق المراعي . نطاق الزراعة . نطاق الأشجار أو التحطيب) في حين يكون الترتيب في المجتمع الزراعي كالآتي : (المدينة . نطاق الزراعة. نطاق المراعي . نطاق الأشجار أو التحطيب) .

إن هذه الفكرة التي جاء بها ابن خلدون في القرن الرابع عشر تذكرنا بمنطوق نظرية فون تونين الألماني Von Thunen في عام ١٨٢٦م عن الدولة أو المدينة المنعزلة Isolated State بخصوص تأثير المدينة على استخدامات الأرض في المناطق المحيطة بها

في ألمانيا . فقد توصل فون تونين إلى أن استخدامات الأرض حول المدينة تكون على شكل نطاقات دائرية . ولما كانت تكلفة النقل تمثل متغيراً متحركاً ، وأن بقية عناصر تكلفة الإنتاج واحدة في كل أجزاء الإقليم ، فإن تكلفة النقل تلعب الدور الحاسم في تقرير توزيع نطاقات استخدامات الأرض بعيداً عن المدينة . وتوصل فون تونين إلى أن عدد النطاقات الدائرية هي ستة كالآتي :

١ - نطاق السلع سريعة التلف كالخضروات والألبان .
٢ - نطاق الغابات للوقود والتدفئة .
٣ - نطاق إنتاج الحبوب (دورة زراعية) .
٤ - نطاق إنتاج الحبوب (دورة زراعية) .
٥ - نطاق إنتاج الحبوب (دورة زراعية) .
٦ - نطاق المراعي وتربية الحيوان .

ولهذا نجد اختلافاً واضحاً بين ماتوصل إليه فون تونين وبين نتائج ابن خلدون من حيث استخدامات الأرض في النطاقات المحيطة بالمدينة ، وذلك لإختلاف ظروف وبيئات المدن العربية عن المدن الأوربية .

وفضلاً عن ذلك فإن ابن خلدون قد توصل إلى وجود تكامل اقتصادي وحضاري بين المدينة والريف أو المنطقة المحيطة بها ، حيث أن هذه المنطقة تجهز المدينة بالسكان ليكونوا القوة العاملة التي تمكن المدينة من القيام بفعالياتها وكجنود لحمايتها والدفاع عنها . كما أن المدينة بحاجة إلى المواد الغذائية التي تنتجها المناطق الريفية . ومن ناحية أخرى أن سكان الريف والبادية يعتمدون على المدينة للحصول على البضائع والخدمات التي تقدمها والتمتع بوسائل الراحة والترف فيها .

٤ - التصنيف الوظيفي للمدن وأساسها الاقتصادي :

يعتبر ابن خلدون هو الأول الذي فرق بين مراكز الاستيطان على أساس وظيفي ، وأنه هو صاحب المبادئ التي تستند عليها نظرية المكان المركزي Central Place Theory التي طورها ونشرها بعد ستة قرون (١٩٣٣م) الجغرافي الألماني الشهير كريستالر Christaller . ومما قاله ابن خلدون في الفصل العشرين من مقدمته في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض مايأتي :

« ... وذلك أنه من البيّن أن أعمال أهل المصر يستدعي بعضها بعضاً لما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الأعمال يختص ببعض أهل المصر فيقومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه ... وما لايستدعي في المصر يكون غفلاً إذ لافائدة لمنتحله في الإحتراف به ومايستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالخياط والحداد والنجار وأمثالها ، ومايستدعي لعوائد الترف وأحواله فإنما يوجد في المدن المستبحرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجّاج والصائغ والدهّان والطبّاخ والصفّار والفرّاش والذبّاح ... وبقدر ماتزيد عوائد الحضارة تستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع ... »[٢٤] .

مما تقدم يظهر أن ابن خلدون قد توصل إلى التمييز بين نوعين من الوظائف في المدينة ، النوع الأول لأغراض استهلاكية محلية ، ويوجد في المدن الصغيرة والمتوسطة ، والنوع الثاني (الكماليات) يدعو إليه ارتفاع مستوى المعيشة وتنفرد به المدن الكبيرة . وبذلك يكون ابن خلدون قد آمن بفكرة النظام الهرمي في أحجام المدن وطبقاتها الوظيفية . فالقرى والمدن الصغيرة لاتنتج أكثر من حاجة سكانها وتقع في أسفل النظام الهرمي ، تليها المدن المتوسطة وتتوفر فيها وظائف وحرف وخدمات تعتبر من الضروريات لسد حاجة سكانها وأحياناً لسد جانب من احتياجات سكان إقليمها . وتأتي المدن الكبيرة في قمة النظام الهرمي ، وسماها ابن خلدون بالمستبحرة العمران لكثرة سكانها وإحتوائها على جميع أصناف الحرف والفعاليات الإقتصادية والسلع والبضائع من المستوى الراقي المستجاد ، ومن الكثرة بحيث تزيد عن حاجة سكان المدينة ، فتصدرها إلى المدن الأخرى . ويقول ابن خلدون بهذا الخصوص مايأتي :

«وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها واستجادة مايطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة . أما العمران البدوي والقليل فلا يحتاج من البضائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار . وإذا وجدت هذه بعد فلاتوجد فيه كاملة ولا مستجادة وإنما يوجد منها بمقدار الضرورة »[٢٥] .

مما تقدم يظهر أن ابن خلدون قد تطرق إلى أمور هي من صلب دراسات جغرافية العمران ، وبخاصة في مجالين أساسيين هما : (١) الأساس الاقتصادي للمدينة (٢) النظام الهرمي في نظرية المكان المركزي . ورغم أن أفكار ابن خلدون قد جاءت بصيغ ومصطلحات مختلفة وبإشارات موجزة ومحددة ، إلا أنها من حيث المضمون والنتائج كانت أساساً لكثير من النظريات والقوانين والقواعد التي تبرز خصائص وأنماط الاستيطان البشري الحديث والمعاصر .

ففي حالة الأساس الاقتصادي لقد قسم الجغرافيون والاقتصاديون الوظائف والفعاليات إلى أساسية Basic Activities وثانوية أو غير أساسية Non - Basic Activities . فالفعاليات الأساسية هي تلك التي تخدم سكان خارج المدينة ، وهي بذلك تشكل نوعاً من صادرات المدينة إلى إقليمها والمناطق الأخرى المتصلة بها اقتصادياً ، وإنها تعتبر الأساس الذي تعتمد عليه المدينة في وجودها ونموها وتطورها . وقد لاحظنا سابقاً أن ابن خلدون قد أشار إلى مثل هذه الفعاليات وأعطاها دوراً فاعلاً في تطور ونمو اقتصاديات المدينة . أما الفعاليات الثانوية أو غير الأساسية فإنها تتكون من الفعاليات التي توجد في المدينة لسد حاجات سكانها فقط ، ولهذا فهي ليست ذات أهمية كبيرة في تطوير اقتصاد المدينة .

ومن استعراض ماكتبه ابن خلدون في مقدمته يبدو واضحاً وجود إشارات عديدة إلى أن الإنسان لاينتج على قدر حاجته أو لاكتفائه الذاتي فقط ، وإنما ينتج أكثر من ضرورياته . فالإنتاج الفائض عن حاجة سكان المدينة يصدر إلى خارجها مقابل عوض وقيمة ، ويؤدي ذلك في النهاية إلى رفع مستوى معيشة سكان المدينة وزيادة استهلاكهم من البضائع والخدمات ونمو الأعمال والصنائع ويزداد وفقاً لذلك دخل المدينة ويتسع عمرانها . وفي هذا المعنى قال ابن خلدون :

« فأهل المدينة إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفى فيها بالأقل وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده ومايحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى ... ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب

وزادت عوائده وحاجاته واستُنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة ... »[٢٦] .

أما بشأن الإشارات التي وردت في المقدمة عن نظرية المكان المركزي فهي أيضاً ذات أهمية وقيمة علمية . فابن خلدون كما يظهر قد آمن بوجود النظام الهرمي لطبقات مراكز الاستيطان حيث تكون القرى في القاعدة ثم المدن الصغيرة فالمدن المتوسطة فالكبيرة ، وكل منها له علاقاته بما يحيط به وله طبقته الحجمية وطبقته الوظيفية . وهذه كما أشرنا سابقاً ، هي أساسيات نظرية المكان المركزي .

ولتفهم الخطوط العريضة لهذه النظرية ، أي نظرية المكان المركزي ، نستعرض أهم قواعدها ونتائجها كي نتبين مدى مطابقتها لما ورد في كتابات ابن خلدون :

١ - إن درجة مركزية المكان ، كما جاء في النظرية وأقوال ابن خلدون ، تعني مايقدمه المكان المركزي من البضائع والخدمات لإقليمه . لذلك تختلف الأماكن المركزية من حيث الأهمية ، إذ كلما ارتفعت مركزية المكان زادت مساحة إقليمه وارتفعت مرتبته الطبقية بين الأماكن المركزية الأخرى .

٢ - إن الأماكن المركزية تصنف ، وفق نظرية المكان المركزي وابن خلدون ، على أساس أحجامها ودرجة مركزيتها إلى طبقات ذات مستويات متباينة تشكل في النهاية هرماً قاعدته القرى وقمته أكبر المدن حجماً .

٣ - ويشير ابن خلدون ونظرية المكان المركزي إلى أن الأماكن المركزية ذات المراتب العالية تتصف بكبر أحجامها وكثرة سكانها وإتساع أقاليمها ، وتقوم بتوفير بضائع وخدمات مركزية متنوعة ومتكاملة وذات مستويات نوعية عالية .

٤ - كما يشير ابن خلدون ونظرية المكان المركزي إلى أن الأماكن المركزية تقوم بتقديم البضائع والخدمات إلى أقاليمها ، وإن مساحات هذه الأقاليم تتناسب طردياً مع أحجام الأماكن المركزية أو مراتبها في النظام الهرمي الطبقي .

مما تقدم يظهر أن ماأشار إليه وأكد عليه العلامة ابن خلدون في مقدمته في القرن الرابع عشر الميلادي قد أعيد النظر فيه وصياغته ووضعه بشكل نظريات وقوانين تتماشى مع الاتجاهات الحديثة والمعاصرة للدراسات الكمية والعلمية والتطبيقية ، وهي لذلك جاءت

بعيدة في الصياغة عن كتابات ابن خلدون ، إلا أنها مشابهة لها في المحتوى والنتائج . ولهذا يعتبر ابن خلدون هو صاحب هذه النظريات والأفكار التي يدعي بها الجغرافيون والاقتصاديون المحدثون والمعاصرون .

ثالثا : أفكاره في محور الجغرافية السياسية :

تحتل دراسة الدولة مكاناً مركزياً من بين الموضوعات التي تشكل مجال الجغرافيا السياسية . والدولة عبارة عن رقعة من الأرض موحدة ومنظمة سياسياً ولها حكومة وطنية ذات سيادة على جميع أجزائها . وقد عرف الجغرافي الألماني راتزل «الدولة» في كتابه عن «الجغرافيا السياسية» عام ١٨٩٧م على أنها مساحة من الأرض تسكنها مجموعة من البشر تجمعهم وحدة لها اتجاه وشعور خاص وفلسفة أو فكرة واضحة محددة . ورغم أن راتزل في نهاية القرن التاسع عشر هو أول من عرف الدولة ، إلا أن كتابات ابن خلدون في مقدمته في القرن الرابع عشر الميلادي قد أشارت إلى أصل الدولة ونشأتها وتطورها وانهيارها . ومن مراجعة هذه الكتابات يشعر القارئ بأن آراء ابن خلدون هي أساس كثير من المفاهيم السياسية الحديثة والمعاصرة .

ويمكن مقارنة أفكار ابن خلدون بالمفاهيم الحديثة للجغرافيا السياسية من خلال أساسيات البحث الآتية :

١ - فكرة الدولة وأصلها .

٢ - قوة الدولة .

٣ - الدولة كائن عضوي .

١ - فكرة الدولة وأصلها :

يرى ابن خلدون أن من أسباب ظهور الدولة هو حاجة المجتمع إلى سياسة ينظم بموجبها أموره . فالدولة بالنسبة له رمز القوة الضاغطة والضابطة والمنظمة للبشرية . فهل يقول في الفصل الثالث والعشرين في (حقيقة الملك وأصنافه) :

« الملك منصب طبيعي للإنسان لأن البشر لايمكن حياتُهم ووجودهم إلا بإجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم ... ولما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ... فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة وهي تؤدي إلى الهرج

وسفك الدماء ... فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولابد في ذلك من العصبية ... »[٢٧] .

وقد يكون ابن خلدون قد تأثر في موضوع «العصبية أو القبلية» بأرسطو الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد (٣٨٤ ق.م - ٣٢٢ ق.م) فقد رأى أرسطو أن الإنسان حيوان اجتماعي بطبيعته ، واعتبر العائلة هي الأصل الذي انبثقت منه الدولة على أساس أنها نواة الجماعة ، وتطورت وأصبحت عشيرة ، ثم أصبحت قبيلة ، ومن القبيلة تكونت المدينة أو الدولة . وهذا الرأي واضح في كتابات ابن خلدون حيث أكد على العصبية القبلية في قيام الدولة .

كما أن في كتابات ابن خلدون مايشير إلى تأثره أيضاً بأفلاطون(٣٤٧ ق.م- ٢٢٧ ق.م) حيث يعلل هذا الفيلسوف قيام الدولة بدافع الحاجة إلى توجه الإنسان إلى التعاون مع الآخرين وتقديم خدماته لهم مقابل انتفاعه من خدماتهم ، أو أن الدولة وفقاً لأفلاطون هي وليدة الحاجات المتبادلة . فأصل الدولة يتمحور حول فكرة إشباع الحاجات والإكتفاء الذاتي .

كما يظهر في كتابات ابن خلدون مايشير إلى تأثره بالغزالي الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي (١٠٥٨ - ١١١١م) . فقد كان الغزالي يؤمن بأن الدولة شيء طبيعي وضروري لتنظيم حياة المجتمع . وقد آمن أيضاً بفكرة التطور ، وفيها يدعي أن الإنسان قد خلق وبطبيعته حاجة دائمة إلى الآخرين ويميل إلى التضامن والتعاون معهم ، وأن تنظيم حياة المجتمع تؤدي إلى الحاجة إلى القانون والحكومة والدولة .

ومع أن ابن خلدون قد تأثر بآراء بعض من سبقوه في قضايا أصل الدولة ومبررات وجودها ، إلا أنه وضع تلك الأفكار بصيغ علمية متطورة لاتختلف عن تلك التي نادى بها الجغرافيون والسياسيون المحدثون والمعاصرون . فالدولة لكي تحافظ على وجودها ووحدتها يجب أن تستند على فكرة أو مبرر لبقائها . وعن طريق هذا المبرر أو المبررات تستطيع الدولة أن تكسب ولاء جميع سكانها وتغطي على أسباب الخلافات والفوارق الحضارية والإقليمية بينهم . ويدعى هذا المفهوم أو الفلسفة بـ «فكرة الدولة» أو «سبب وجود الدولة»[٢٨] .

وتختلف الدولة في الفكرة التي تقوم على أساسها ، فبعضها يعتبر فكرة القومية أو الدين أهم مبررات وجودها . وهنا يمكن التأكيد على أن ابن خلدون قد أدرك فكرة الدولة قبل أن يدركها الجغرافيون السياسيون المحدثون والمعاصرون من أمثال راتزل الذي ينسب إليه هذا المفهوم . فقد وجد ابن خلدون أن «العصبية» هي الأساس الأول الذي تقوم عليه الدولة . والعصبية بالنسبة له إنما «هي الالتحام بالنسب أو ما في معناه»[٢٩] . وإن من صفات العصبية كما يرى ابن خلدون «الحماية والتعاون بين أعضائها والولاء والإخلاص لبعضهم البعض ... وإنها هي التي تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة ، وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله ...»[٣٠] .

أما الفكرة الأخرى لوجود الدولة حسب ابن خلدون فتستند على الدعوة الدينية . فقد استنتج أن الدين عامل على جانب كبير من الأهمية في توحيد السكان وكسب ولائهم. فقد جاء في المقدمة :

«إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها ، والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق ...»[٣١] .

ويقول ابن خلدون كذلك :

«في أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك أصلها الدين إما من نبوة أو دعوة حق وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه . قال تعالى : لو أنفقت مافي الأرض جميعاً ما ألفْتُ بين قلوبهم ...»[٣٢] .

٢ - قوة الدولة :

إن دراسة «قوة الدولة» هي من الدراسات الهامة في المقررات السياسية والاستراتيجية والجغرافية السياسية والجيوبولتكس . ويختلف المختصون في تعريف «قوة الدولة» وقياس العناصر التي تشكل تكوينها ، وذلك بسبب تعقد طبيعة القوة وتعدد

عناصرها [٣٣] . ومن الواضح أن القوة ذاتها غير قابلة للمشاهدة والتفسير إلا في مظاهرها ونتائجها . فقد نكون على علم بما تفعله القوة ، إلا أننا لسنا قادرين على تحديد جوهرها ومادتها [٣٤] .

ولابن خلدون آراؤه ومفاهيمه عن القوة حيث ورد الكثير في المقدمة عن ذلك . فقد شعر أن الدولة القوية لابد أن تترك أثراً يشهد على قوتها وعظمتها ، ومستوى حضارتها. وفي هذا المجال يقول :

«على قدر عظم الدولة يكون شأنها في الحضارة» [٣٥] . وفي مناسبة أخرى يقول : «في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها ...» [٣٦] ويعلل هذا بما يأتي :

«والسبب في ذلك أن الآثار إنما تحدث عن القوة التي بها كانت أولاً وعلى قدَرها يكون الأثر ، فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة فإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لأنها لاتتم إلا بكثرة الفَعَلة واجتماع الأيدي على العمل بالتعاون فيه . فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان الفَعَلة كثيرين جداً وحُشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله ، ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وما قصه القرآن عنهما . وانظر بالمشاهدة إيوان كسرى وما اقتدر فيه الفرس ... وانطر إلى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة ... وآثار شرشال في المغرب والأهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان يُعْلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف ...» [٣٧] .

أما عن توزيع القوة على مساحة الدولة فقد استفاد ابن خلدون من خبرته ومعرفته التاريخية في التمييز بين مناطق توزيعها ، إذ إنه فرق بين مركز الدولة وطرفها ونطاقها . فقد ورد في المقدمة قوله :

«والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق . وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شأن الأشعة والأنوار إذا انبعث من المراكز والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقْر عليه ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ... وإذا غلب على الدولة من مركزها فلاينفعها بقاء الأطراف

والنطاق بل تضمحل لوقتها فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح ... وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس ... »[٣٨] .

يظهر مما تقدم أن ابن خلدون قد انتبه إلى الفرق بين قلب الدولة والإقليم الذي يشمل منطقة نشأتها وعاصمتها وبين الطرف الذي يقصد به المساحة الباقية من الدولة خارج مركزها أو المنطقة غير الفعالة في الدولة حيث يتصف سكانها بقلة الولاء للسلطة المركزية لبعدها عن المركز وقلة مساهمتها الاقتصادية والسياسية للدولة . وتنتهى الدولة بمنطقة حدود ، أو كما دعاها ابن خلدون «بالنطاق» حيث ينتهي عندها تأثير الدولة وسيطرتها السياسية الداخلية .

إن آراء ابن خلدون تذكرنا بأعمال الجغرافيين المحدثين التي تتركز في اكتشاف نمط مراكز القوة في الدولة . فهم يدركون أن العبرة ليست في إمتلاك الدولة مساحة واسعة ، ولا أن تأثير الدولة يتوزع بدرجة متساوية على جميع مساحتها ، بل هناك فرق بين العاصمة وباقي المدن الأخرى ، وبين المساحة الكلية للدولة والمنطقة الفعالة منها فقط . فالمساحة الكلية هي المنطقة التي توجد داخل حدود الدولة السياسية ، في حين أن المنطقة الفعالة هي ذلك الجزء من الدولة الذي يسهم فعلاً في الإقتصاد القومي والذي تعتمد عليه الدولة في قوتها السياسية والعسكرية ويخضع لسيطرتها ، وتكون العاصمة في أكثر الدول في مجاله . وتعرف هذه المنطقة أحياناً «بمنطقة نواة الدولة Core Area » .

وقد أشارت كتابات ابن خلدون في مناسبات عديدة إلى أن عاصمة الدولة هي مركزها الأساسي ، إدارياً وسياسياً وعسكرياً واقتصادياً على الأغلب . فإذا ما سقط هذا المركز بيد عدو أو ثائر أو انفصل عن الدولة تعرضت الأجزاء الأخرى للخطر . وقد لايوجد في تاريخ الدول مثال على سقوط العاصمة بمجرد السيطرة على الأطراف أو استقلالها عن رقعة الدولة . وتعتبر العاصمة أحد عوامل التوحيد الرئيسة بين مواطني الدولة حيث تتوجه إليها أنظارهم وآمالهم ، ومنها ينتظرون صدور القرارات التي تنظم علاقاتهم السياسية والإقتصادية . كما أنها هي المركز الذي تتبلور فيه معنويات السكان وتعكس ثراء وتنظيم قوة الدولة .

مما تقدم يظهر أن العاصمة تختلف اختلافاً بيناً عن مناطق الدولة الأخرى ، ولهذا فإن دراستها تعتبر من المواضيع الهامة في مناهج الجغرافية السياسية[٣٩] . ولهذه الأسباب أيضاً تحاول الدول إقامة عواصمها في مواقع تضمن لها الحماية الكافية والإستقرار السياسي الدائم . وبصورة عامة ، يعتبر وسط الدولة هو الموقع المثالي لبناء عاصمتها . ولرغبة بعض الدول في تنمية وتطوير أطرافها المتخلفة وإخضاعها لسيطرتها الفعالة والمباشرة فإنها تلجأ إلى نقل عاصمتها إلى تلك الأطراف ، كما فعلت البرازيل عند استبدال ريو دى جانيرو عاصمتها القديمة بعاصمتها الجديدة برازيليا ، أو كما فعلت باكستان عند استبدالها عاصمتها القديمة كراجى الساحلية بعاصمتها الجديدة الداخلية إسلام أباد ، مما يوحي بأهمية موقع العاصمة مقارنة بالأطراف .

٣ - الدولة كائن عضوي :

يرى ابن خلدون أن الدولة من ضروريات المجتمع وأن وجودها أمر طبيعي ، وإنها تتصف بصفات عضوية كأي كائن حي ، ولهذا «فالدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص». وقد قدر ابن خلدون عمر الدولة بثلاثة أجيال أو ١٢٠ سنة . ورأى بأن كل فترة تمر بها الدولة لها صفات حضارية معينة . فالجيل الأول يتصف بالبداوة والخشونة والعصبية ، في حين يتم التحول في الجيل الثاني من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف ، ويبلغ الجيل الثالث قمة الترف ثم تهرم الدولة[٤٠] . وقد فسر انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة بما يأتي :

« ... أهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم ، فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شئ من الحضارة ... فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والعَوَمَةَ عليهم أفادوهم علاج ذلك ... فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة ... »[٤١] .

وفي أماكن أخرى من المقدمة أشار ابن خلدون إلى صفات كل مرحلة من المراحل التي تمر بها الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها فيقول :

«إعْلَمْ أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لايكون مثله في الطور الآخر...» . وهنا يميز خمسة أطوار متعاقبة هي : «طور الظفر بالبغية والإستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة. الطور الثاني هو طور الإستبداد على قومه والإنفراد دونهم بالملك . الطور الثالث هو طور الفراغ والدعة وتحصيل المال وتشييد المباني والمصانع والهياكل ، وهو آخر أطوار الإستبداد. الطور الرابع هو طور القنوع والمسالمة . أما الطور الخامس فهو طور الإسراف والتبذير في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته ، ويحل بالدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن إلى أن تنقرض ...»[٤٢] .

وبهذا فإن ابن خلدون يعلل إنتقال الحضارة من جماعة إلى أخرى أو من دولة إلى أخرى عن طريق التفاعل الحضاري المتبادل بين الغالب والمغلوب . كما رأى أن الهرم هو حدث طبيعي وظاهرة بديهية للدولة ، وقد شبّه ذلك بما حدث لكافة الأحياء ، وأنه إذا نزل بالدولة فإنه لايرتفع عنها .

هذا مارآه العلامة ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي ، ورآه نخبة من الجغرافيين في القرنين التاسع عشر والعشرين من أمثال الجغرافيين الألمان كارل ريتر K. Ritter (١٧٧٩ - ١٨٥٩م) وفردريك راتزل Ratzel (١٨٤٤ - ١٩٠٤م) وكارل هوسهوفر K. Haushofer والجغرافي السويدي رادولف كيلين R. Kjillen (١٨٦٤ - ١٩٢٢) والجغرافي الأمريكي فان فالكنبرج Van Valkenburg . إنهم رأوا الدولة على أنها كائن عضوي ، تنمو وتمر بمراحل الحياة الإعتيادية كالصبا والشباب والنضج والهرم ثم الإندثار . فالدولة وفقاً لهذه النظرية تحتاج إلى مجال حياتي يضمن لها البقاء والنمو والتوسع ، وإنها لاتحدد بحدود سياسية ثابتة ، بل يجب أن تتصف الحدود بالمرونة وقابلية التغيير ، فهي بالنسبة للدولة كالبشرة تتوسع لكي تناسب نمو الأجسام الحية . ويبدو أن في هذه الفكرة معنى التوسع والإستعمار ، ولهذا فقد اتخذها الساسة النازيون الألمان لتبرير سياستهم التوسعية . وقد أعاد الجغرافي الأمريكي فان فالكنبرج النظر في مفهوم عضوية الدولة فأضافه إلى موضوعات الجغرافية السياسية في كتابه «مبادئ الجغرافيا السياسية الذي نشره في عام ١٩٤٩م»[٤٣] وكان الغرض من ذلك هو إيجاد تعليل

للتطورات السياسية التي حدثت في العام بعد سنة ١٩٠٠م وتفسير عدم الإستقرار السياسي الذي اتصفت به العلاقات الدولية في النصف الأول من القرن العشرين . وقد رأى في تعليله لما حدث على أساس دورة تمر بها الدولة في عملية نموها السياسي . وقد ميز فان فالكنبرج ، كما ميز ابن خلدون قبله بخمسة قرون ، أربع مراحل في نمو الدولة وصفات كل من هذه المراحل والأدوار . وهذه المراحل هي : ١ - مرحلة الصبا ، أو مرحلة مولد الدولة وتوحيدها داخلياً و٢ - مرحلة المراهقة وتتميز بالتوسع الإقليمي وعدم الاستقرار السياسي بين الدول و٣ - مرحلة النضج وتكون فيها الدولة قليلة الرغبة في اكتساب أراض جديدة ، وقد تكون ميالة خلالها إلى ترك بعض أجزائها إذا لم تنسجم مع باقي إقليمها و٤ - مرحلة الشيخوخة والزوال وتحل عندما تضعف الدولة وتعجز عن حماية ممتلكاتها فتدخل في دور الهرم وتتعرض إلى خطر الانكماش والتفكك ثم الفناء .

والخلاصة أن لابن خلدون أفكاراً وآراءاً أصيلة عن الدولة . فقد كان له رأي في أصل الدولة وبقائها اعتماداً على دعوة دينية أو نزعة عصبية . كما أنه اتجه اتجاهاً جديداً عند محاولته بحث العناصر الجغرافية المهمة التي تسهم في تحديد قوة الدولة كالمساحة والسكان وموارد الثروة والآثار التي تتركها كالمباني والهياكل العظيمة ومظاهر العمران البشري الأخرى . كما وجد ابن خلدون أن هناك تبايناً في توزيع قوة الدولة على مساحتها. ورأى بأنه مادام وجود الدولة أمراً طبيعياً فإنه لابد أن يكون لها عمر طبيعي كباقي الكائنات الحية . ولهذا العمر مراحل متميزة تنتهي بهرم الدولة وتلاشيها أو إنقسامها . ولهذا يظهر أن نظرية النشوء والإرتقاء التي جاء بها دارون في عام ١٨٥٩م وفكرة عضوية الدولة التي إستندت عليها لم تكن أصيلة وجديدة ، وبخاصة بعد اكتشاف ماتوصل إليه ابن خلدون بهذا الصدد .

الهوامش

(١) شاكر خصباك ، كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي ، (مطبعة دار السلام ، بغداد ، ١٩٧٩م) ، ص ٢٤٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ، (دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٨م) ، ص ٤١ .

(٣) جريفث تيلور (محرر) ، الجغرافية في القرن العشرين (مترجم) ج ١ ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م) ، ص ١٧٧ .

(٤) Huntington, E . , Civilization and Climate, (N . Y.,1939) .

(٥) Semple, Ellen, Influences of Geographical Environment,(N.Y., 1911), pp. 1 - 2.

(٦) مقدمة ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ص ٨٢ - ٨٣ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٨٤ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٨٥ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٨٧ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ص ٨٧ - ٨٨ .

(١١) نفس المصدر ، ص ص ٨٦ - ٨٧ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٣٤٢ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ٣٤٣ .

(١٤) Vidal de La Blache , Principles of Human Geography, English Translation, (London, 1965), p. 471.

(١٥) Raphael Patai, The Kingdom of Jordan, (Princeton Univ. Press, N .J.1958), p.187 .

(١٦) مقدمة ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(١٧) Taylor, Griffith, Urban Geography, (London, Methuem, 1961, p. 87) .

(١٨) K. Dikshit, " Some Observations on the Techniques and Generalization in Urban Geography ", The Indian Geographers, vol. 3, 1968, pp. 61 - 70 .

(١٩) حسن الخياط ، «الأقاليم الوظيفية لمدينة بغداد الكبرى» ، مجلة الأستاذ ، (كلية التربية ، جامعة بغداد ، المجلد ١٣ ، ١٩٦٦م) ، ص ص ٢٥٠ - ٢٥٤ .

(٢٠) جمال حمدان ، جغرافية المدن ، (عالم الكتب ، القاهرة ، مطبعة البيان العربي ، ١٩٧٧م) ، الطبعة الثانية منقحة ، ص ١ .

(٢١) مقدمة ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ٣٤٧ .

(٢٢) نفس المصدر السابق ، ص ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .

(٢٤) مقدمة ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٢٥) مقدمة ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص ص ٤٠٠ - ٤٠١ .

(٢٦) مقدمة ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢٧) مقدمة ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص ١٨٧ .

(٢٨) Richard Hartshorne, The Functional Approach to Political Geography", Annals of the Association of American Geographers, vol. 40 , 1950, 95 - 139.

(٢٩) مقدمة ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ١٢٨ .

(٣٠) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٤ .

(٣١) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣٢) نفس المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٣٣) من بين التعاريف الهامة لقوة الدولة تعريف ستوسنجر Stoessinger الذي يرى أنها «قابلية الشعب على استعمال موارده المادية وغير المادية بطريقة تؤثر على سلوك الشعوب الأخرى .

Harm J. de Blij, Systematic Political Geography (N. Y. John Wiley, 1967), p. 80 .

(٣٤) Leonard Kreiger and Fritz Stern (eds), The Responsibility of Power, (London, Macmillan, 1968), pp. 3 - 4 .

(٣٥) مقدمة ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ١٧٤ .

(٣٦) نفس المصدر ، ص ١٧٧ .

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٧٧ .

(٣٨) نفس المصدر ، ص ١٦٢ .

(٣٩) O. H. K. Spate, " Factors in the Development of Capital Cities ", Geographical Review, vol. 32, 1942, pp. 622 - 631.

(٤٠) مقدمة ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٤١) نفس المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٤٢) مقدمة ابن خلدون ، مصدر سابق ، ص ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٤٣) Van Valkenburg, S., Elements of Political Geography, (London, Pitman and Sons, 1949). pp. 8 - 12.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية

- اغناطيوس كرتشكوفسكي (ترجمة صلاح الدين هاشم) ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، (منشورات الجامعة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١م) ، الجزء الأول .
- جريفث تيلور (محرر) (ترجمة محمد السيد غلاب وآخرون) ، الجغرافية في القرن العشرين ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م).
- جمال حمدان ، جغرافية المدن ، (عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧م) ، الطبعة الثانية منقحة .
- حسن الخياط ، «الأقاليم الوظيفية لمدينة بغداد الكبرى» ، مجلة الاستاذ ، (كلية التربية ، جامعة بغداد ، المجلد ١٣ ، ١٩٦٦م) .
- حسن الخياط وآخرون ، مدخل إلى الجغرافيا العامة ، (مكتبة المتنبي ، الدوحة ، ١٩٨٨م) .
- حسن طه النجم ، «دراسة في الفكر الجغرافي» ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، ١٩٧١م ، ص ١٢٦ - ١٣١ .
- شاكر خصباك ، تطور الفكر الجغرافي ، (مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٨٦م) .
- ـــــــ ، كتابات مضيئة في التراث (مطبعة دار السلام ، بغداد ، ١٩٧٩م) .
- عبد الرحمن ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، (دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٨م).
- عبد الرحمن حميده (ترجمة) ، الجغرافيون والرحالة المسلمون للمستشرق مينورسكي، (من منشورات قسم الجغرافيا - جامعة الكويت والجمعية الجغرافية ، ١٩٨٥م) .
- عبد الرزاق عباس ، «آراء ابن خلدون في المدن وعلاقتها بالمفاهيم الحديثة» ، مجلة الاستاذ ، المجلد الخامس عشر (كلية التربية ، جامعة بغداد ، ١٩٦٩م) .
- عبد المنعم عبد الوهاب وصبرى الهيتي ، الجغرافيا السياسية ، (وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، ١٩٨٩م) .
- محمد علي الفرا ، «الإنسان بين حتمية ابن خلدون وإمكانية لابلاش وفيفر» ، (مجلة القافلة السعودية ، سبتمبر ١٩٨٣م) .
- محمد محمود الصياد ، «فضل المسلمين على الجغرافيا» ، (مجلة جامعة الرياض ، مجلد ١ ، يوليو ١٩٥٧م) ، ص ٢١ - ٤٢ .

ثانيا : المصادر الأجنبية :

- Alam, Manzor, " Ibn Khaldun's Concept of the Origin, Growth , and Decay of Cities ", Islamic Culture, 34, 1960, pp. 90 - 106 .
- Blij, Harm J., Systematic Political Geography, (N. Y., John Wiley, 1967) .
- Hartshorne Richard, The Functional Approach to Political Geography", Annual of the Association of American Geographers, vol. 40, 1950, pp. 95 - 139 .
- ---------- , The Functional Approach to Political Geography ", Annuals of the Association of American Geographers, vol. 40, 1950, pp. 95 - 139 .
- ---------- , The Nature of Geography, 1939 .
- Huntington, E., Civilization and Climate, (N. Y., 1939) .
- James, Preston E., All Possible Worlds : A History of Geographical Ideas, (N. Y. The Bobbs Merril, 1972) .
- -K. Dikshit, " Some Observations on the Techniques and Generalization in Urban Geography " , The Indian Geographers, vol. 3, 1968, pp. 61 - 70 .
- Kreiger, Leonard, and Fritz Stern (eds.), The Responsibility of Power, (London, Macmillan, 1968) .
- La Blache, Vidal de, Principles of Human Geography, English Translation, (London, 1965) .
- Mayer, M. H. and Kohn, C. (eds.), Readings in Urban Geography, (Chicago, Univ. of Chicago Press, 1959) .
- Nafisa, Ahmad, Muslim Contribution to Geography, 1965 .
- Patai, Raphael, The Kingdom of Jordan, (Princeton Univ. Press, N. J. 1958) .
- Semple, Ellen, Influences of Geographical Environment, (N. Y., 1911).
- Spate, O. H. K., " Factors in the Development of Capital Cities ", Geographical Review, vol. 32, 1942, pp. 622 - 631 .
- Taylor, Griffith, Urban Geography, (London, Methuem, 1961) .
- Van Valkenburg, S., Elements of Political Geography, (London , Pitman and Sons, 1949) .